

عَرَضَ وَتَعَرِّيفَ بِكِتَابِ

## التَّارِيخُ الدِّبْلُومَاسِي لِلْمَغْرِبِ

تَأْلِيفُ الدَّكْتُورِ عَبْدِالْهَادِي التَّازِي

بِقَلَمِ الْمُؤَلِّفِ

يرجع اهتمامي بالبحث عن صلة المغرب بغيره من الأمم، إلى ما قبل خمس وعشرين سنة، وبالذَّات في أوائل سنة ١٩٦٣ عندما أسندت إليَّ مهمة السفارة عن بلادي ... فهناك فتحت ملف التَّاريخ الدِّبْلُومَاسِي للمغرب...

ولقد ظهر هذا الاهتمام أوَّل الأمر في المقال الذي كتبتَه عن (العلاقات الثقافية بين روما وفاس) منذ القرن العاشر للميلاد، وكان ذلك بمناسبة الحفلات التي شهدتها المغرب وإيطاليا بمناسبة توأمة مدينة فاس مع مدينة فلورانس<sup>(١)</sup>، وقد ظهر اهتمامي بالموضوع جلياً في عبارات الشُّكر والامتنان التي أُجبت بها جلالة الملك الحسن الثاني وهو يسلمني أوراق اعتماد سفيراً عنه إلى بغداد، عندما ذكرت في ذلك اللقاء أمام جلالته، اسم الإمام (ابن العربي) الذي توجَّه سفيراً عن السُّلطان يوسف بن تاشفين إلى المستظهر بالله الخليفة العباسي ببغداد قبل تسعة قرون أو تزيد<sup>(٢)</sup>...

---

(١) جريدة العلم المغربية، ٩ مارس ١٩٦٣ - / مجلة المغرب لسان وزارة الشَّؤون الخارجية العدد ٦ مايو ١٩٦٣.

(٢) الصحف المغربية، ليوم ١٤/١٥ مايو ١٩٦٣ - / التاريخ الدبلوماسية للمغرب ج١، ص٩، ١٩٨٦- د. التازي:

عظمة الميثاق، محاضرة أُلقيت أمام جلالة الملك يوم الجمعة ١٤ رمضان ١٤٠٦ = ٢٣ مايو ١٩٨٦.

من هنا أخذت طريقي نحو هذا الموضوع، وكنت أعتقد، ولا أخفي ذلك، أن الموضوع في المتناول...!

ولشدّ ما كانت مفاجأتي وأنا أجد نفسي أمام جبال متعالية شامخة - أمام مغامرة حقيقة!.

ولقد كان أول انطباع لازمني منذ هذه البداية أنني اقتنعت بأن الذين ينشدون تاريخ المغرب عن طريق الكتب التي تعالج أحداث المغرب الداخلية، من التي ألقت بلسان عربي في العهود السابقة أو اللاحقة، إنّما كانوا يبحثون عن القشور ويتمسكون بأهداب الموضوع! لأن تلك الكتب تظلّ بعيدة عن أن تعطي صورة عن هذا المغرب العظيم الذي كان يشغل حيّزاً كبيراً وهاماً في أرشيف المجموعة الدولية التي كانت تعرف جيداً عن موقعه وواقعه...

لقد كان ذلك انطباعي، ومن حسن حظّي أن ذلك الانطباع هو الذي كان وراء حملي على المضيّ قدماً في ذلك الطريق الملذّ المتعب في آن واحد!! وقد كان مما زاد في تشجيعي ملاحظتي بأن المؤرخين القدامى على العموم كانوا يهتمون تماماً بالحديث عن تاريخ العلاقات الدولية للمغرب! بمن فيهم ابن خلدون ومن أتى قبله وبعده! وملاحظتي كذلك بأنّ المؤرخين المعاصرين - وخاصة منهم إخواننا في المشرق - إنّما يتحدثون عما يتصل ببلادهم دون أن يكلفوا أنفسهم الالتفات إلى هذا المغرب الذي كان رصيده متميّزاً في هذا الباب إن لم أقلّ إنّّه أقوى وأغنى!.

وبالرغم من أن كتابي (التاريخ الدبلوماسي) قد يشعر بأنّه يقتصر على تاريخ العلاقات الدولية لديار المغرب إلا أن الكتاب - ويجب أن أقول هذا - يتناول الصلات التي ربطت العالم الإسلامي كله بالعالم المسيحي، لماذا؟ لأن المغرب - وهو يكوّن جزءاً كبيراً وبارزاً من الدولة الإسلامية الكبرى - قام بدور جدّ حاسم وجدّ

خطير وجدّ هامّ في المجموعة الدّولية، ومن ثمت يسوغ القول بأنّه مصدرٌ من مصادر تاريخ للعلاقات الدولية لملة الإسلام قاطبة مع الملل الأخرى... وهل سجّل التّاريخ الدولي للإسلام لقطة أقوى وأكثر دلالة من التي سجلها عندما وردت سفارة من ملك إنجلترا جوهن على الخليفة الناصر الموحدي (٦٠٩ - ١٢١٣) يطلب إلى العاهل المغربي أن يقدم عونه المادي لإنجلترا في مقابلة أن يعتنق جوهن دين الإسلام وأن يحمل أمته على أن تحذو بكاملها حذوه!!

وهل ينسى أحد أن ملوك المغرب هم الذين طلبوا - دون غيرهم من ملوك المشرق - من ملوك أوروبا أن يعتنقوا الإسلام<sup>(١)</sup>؟!

وبالرغم من أن كتابي "التّاريخ الدّبلوماسي للمغرب" يقع في عشرة مجلّدات، إلا أنني أقول من الآن: إنه يعطي فقط إشارات سريعة أمام الذين يريدون أن يتابعوا البحث والتّقيب ... إنّه تاريخ هائل بكل ما يكتنفه من حقائق، وأنّي لمجلّدات معدودة أن تستوعب صلة المغرب بكلّ مملكة وكلّ إمارة وكلّ دولة من دول العالم شرقه وغربه؟!

ولقد تحدثت في ديباجة الكتاب عن مشاعري وأنا أحمل نفسي على "التّأقلم" مع الموضوع ومعايشته ... سواء عن طريق اللّقاءات أو المحاضرات أو الاستجوابات أو تنظيم المعارض وكتابة المقالات والاستفادة من المناسبات...

هذا بالإضافة إلى الفائدة المستمرة من ممارستي لوظيفتي الدّبلوماسية بما تقتضيه من استقبالات واستطلاعات، أو مسابيرات ومعاكسات، أو ظروف وصروف كانت تفتح لي كلّ يوم آفاقاً جديدة وربما أجابت عن بعض الأسئلة التي كانت تنتصب أمامي...

ولقد تعمدت في مقدمة الكتاب - التي استوعبت وحدها مجلدين اثنين - تعمدت أن أبرز سائر العناصر التي استرعت نظري وأنا أحرّر أبواب الكتاب

وفصوله ... وهكذا فنظراً لأهمية المراجع التي استشرتها خصصت جانباً من المقدمة لمصادر التاريخ الدبلوماسي للمملكة المغربية أتيت فيه على معظم ما توفرت عليه من مصادر مخطوطة أو مطبوعة سواء أكانت باللغة العربية أو غيرها من اللغات الأخرى فرنسية وإنجليزية وإسبانية وبرتغالية وإيطالية وألمانية وتركية وروسية وغيرها، مما عثرت عليه في بعض المستودعات والأرشيفات والمستندات سواء في خزائن إفريقيا أو أوروبا أو آسيا أو أمريكا...

وجدت نفسي أمام "مناجم" إذا صح هذا التعبير، وليس أمام خزائن: آلاف الملفات ... وعشرات الآلاف من البطاقات والخطابات ومئات الاتفاقيات والمعاهدات والبروتوكولات، بما فيها الاتفاقيات الثنائية والاتفاقيات المتعددة الأطراف ... والاتفاقيات المكتوبة والشفوية كذلك، مئات السفارات والبعثات لكل جهة من جهات العالم...

ولقد كونت المراسلات المتبادلة بيني وبين الذين خاطبتهم من رجال الاختصاص حول الموضوع .. كونت وحدها - وهي وافرة- مصادر جديدة أضفتها إلى تلك الوثائق...

ولقد تناولت المقدمة كذلك موضوع أصالة الممارسة المغربية في باب التعامل الدولي، وهنا كان الحديث عن صلات الإمارات المغربية بعضها ببعض، وصلاتها هي بالذين وردوا عليها من مختلف الجهات...

ومن خلال الحديث عن تلك المحاور المختلفة كلها. نقف على عدد من الموضوعات العامة التي من شأنها أن تقدم الهوية المغربية على ما هي عليه أمام أنظار العالم.

فهنا نقرأ عن شعارات الدولة المغربية سواء في الدين أو في المذهب، وسواء في الأعلام والرَّايَات أو التشيد الوطني أو الأوسمة والجوائز...

ويتحدث الكتاب عن التجاوب مع الشعب وسياسته الإدارية وعن العملة المغربية وبيت المال وعن جهاز وزارة الخارجية أو (وزارة البحر) كما أصبحت تسمى في بداية عهد العلويين: عن مقرها وأول من عهد له بالمهمة وأوقات العمل وطريقة اتصال الوزير بالسلطة المركزية وعلاقاته بالسلك الدبلوماسي والقنصلي...

ويتحدث الكتاب عن المدرسة الدبلوماسية المغربية ... حيث نجد عدداً من الدول تلتجئ إليه ليقوم بمساعييه الحميدة من أجل إصلاح ذات البين وبناء قواعد السلام، حيث توسط المغرب بين عدد من الدول الآسيوية والإفريقية ... وتحققت وساطات المغرب أيضاً بين قارة وقارة حيث وجدناه يسعى للصلح بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين بعض الولايات في إفريقيا وبين قادة المغرب الكبير...

وعندما يتحدث الكتاب عن السفراء المغاربة والسفارة يتعرض لأوراق الاعتماد ونوعية المرشحين للمهام الدبلوماسية، ونشاط السفراء المغاربة في الخارج، مجاملاتهم، مصانعاتهم، مبادراتهم ... عن البعثات المتنقلة والبعثات المقيمة، وعن تفوق المغرب في تنقلاته السياسية...

وتشير المقدمة إلى معجم الدبلوماسيين المغاربة حيث نجد أنفسنا أمام لائحة طويلة عريضة للذين كانوا مبعوثين أمناء للتعريف بالمملكة المغربية، كان من بينهم سيدات مغربيات ساهمن في الحقل السياسي ... وكان من بينهم أميرات مغربيات وأخريات من أصل غير مغربي، وسيّدات كن يعشن في بلاطات أوروبية!...

ويتحدث الكتاب عن الألقاب الخلفية ومعالم الحكم ... وهنا يعرف بالفرق بين لقب أمير المؤمنين ولقب أمير المسلمين ... كما يعرف بالتقاليد الخاصة بالمظلة التي ترفع على رأس الملك، وعن الأحجار الكريمة وموسيقى الخمسة والخمسين ... واللباس المغربي:

الكساء والبرنس والجلباب، واعتزاز المغاربة بزيّهم ورفضهم للزيّ الأجنبي الذي كان يحاول بعض السلاطين القدامى إملأه على الجمهور...!

ويتحدث الكتاب عن تولّي السلطة، وإشراك الشعب فيها عن الطريق الاستشارة، وهنا نجد حديثاً عن البيعة ونظامها وتعليل القلقشندي لهذه الظاهرة في المغرب ... ومن منطلق إشراك الشعب في الحكم نجد عادة إطلاع الأمة على الأحداث الكبرى المستجدة في البلاد: مثلاً وضع المسلمين بالأندلس واصطدام الأسطول الإسباني بالإنجليزي والإخبار بوصول الوفود الأجنبية واللاجئين السياسيين إلى المغرب والإخبار كذلك بالحملة والغارات... وأخيراً تحليل المقولة السائرة: "الناس على دين ملوكهم أو الملوك على دين ناسهم"...!

ولا يغفل الكتاب الحديث عن انطباع الزوّار الأجانب حول سياسة الحكم في المغرب ... عن قوة الحكم والحنكة والممارسة المتوارثة والاستفادة من الظروف، والتسامح والعفو والعدل والتقوى وإعطاء المثل للقدوة الحسنة ... وظاهرة التخلص من عقد النقص في الحكم المغربي، فالدولة اللاحقة لا تتهيب الثناء على الدولة السابقة ... المرابطون يثنون على الأدارسة والعلويون يشيدون بالسعديين...

ويتحدث الكتاب عن دور العلماء في سياسة الحكم وأنهم كانوا وراء السياسة والقرار، ومن هنا كان اهتمام السلك الدبلوماسي الأجنبي بالعلماء، وبما يصدر عنه من فتاوى، وتكون فرصة لاستعراض الفتاوى التي كان لها أثر في التاريخ المغربي، فتواهم لمساعدة الأندلس، فتواهم لإنجاد طرابلس وبلاد الشام، فتاويهم لإبرام عقود الصلح، فتواهم بشجب بعض الباشاوات الأتراك الذين خذلوا المغرب وهو بصدد تحرير مليلية ... فتواهم لمقاطعة المستبدين والغاصبين...!

ويخصّص الكتاب جانباً منه لموقف المغرب من قضايا حقوق الإنسان حيث نقرأ فصلاً ممتعاً عن مبدأ الإسلام حول الاستعباد ... والتخلص للموقف الرائد

الذي اتخذهُ السلطان مولاي إسماعيل لتطويق ظاهرة استرقاق الإنسان عندما حظر على الخواص التسابق لتملك العبيد ... وأنقذ هؤلاء عن طريق تجنيدهم ومنحهم العيش الكريم ... وهنا حديث عن الملك محمد الثالث الذي خصص ثلث الميزانية المغربية لتحرير الإنسان دون تقييد بجنسه أو دينه أو لونه أو مركزه كذلك! ... وحديث عن الحملة الدبلوماسية المكثفة المخصصة لقضية افتداء الأسرى، وحرص المغرب في سائر الاتفاقيات الدولية على التنصيص على تحريم أسر الإنسان وتعليقات بعض الصحف الأوروبية على الموقف المتحرر للسلطان مولاي سليمان ...

ومن هنا ينتقل الكتاب إلى أهداف السفارات المغربية في القديم، فعلاوة على التوسل لتحرير الثغور المحتلة وتصفية قضايا الحدود هناك هدف الإخبار بالانتصارات واستمزاز الرأي، واستقدام الخبراء ومصاحبة البعثات الطلابية وتفقدتها وإبرام عقود السلام والتجارة ورفع التهاني وتقديم التعازي ومواساة الدول التي تتعرض لكوارث طبيعية أو "آفات سماوية" كما يسميها ابن خلدون.

وقد كان هدف السفارات المغربية أيضاً في بعض الأحيان شرح أهداف الدين الإسلامي والدعوة إلى اعتناقه ... هذا بالإضافة إلى استرجاع المخطوطات العربية من المدن المسيحية ودعم الصلات مع دول المشرق وخاصة عند مواسم الحج ...

ومن الفصول التي تعرض لها الكتاب الفصل الذي يهتم بمتاعب الدبلوماسيين ومباهمهم حيث تراهم يعايشون التقاليد الغربية ويتحملون الغربة عن الأوطان ويتعرضون لأخطار المتابعات والمصارحات والمواقف الحرجة..! ويأتي الكتاب بنماذج لها أثر عن بعض سفرائنا القدامى، وعن دور الكرم في قضاء المهام، واعتزاز السُّفراء ببلادهم وغيره الملوك على سفرائهم ...

ويخصص الكتاب جانباً منه للحديث عن المغاربة الذين سجلوا مذكراتهم في أثناء مهامهم بالخارج...

وهنا نقرأ حديثاً ممتعاً عن يحيى الغزّال عند سفارته لدى الروم في العصور الوسطى، وعن ابن العربي في بعثته لدى البلاط العباسي وابن بطوطة في رحلته حول العالم حيث تتخذ له صورة عند زيارته للصين، وعن التّمكروتي بإسطامبول وعن أفوقاي في لاهاي، وعن الزير الإسحاق في سفريته صحبة الأمير سيدي محمد بن عبدالله، والسفير أحمد الغزّال في رحلته إلى الأندلس ... والسفير ابن عثمان وهو بإسبانيا وإيطاليا وتركيا ويتخذ له بطاقة زيارة، ويتحدث عن الثورة الأمريكية من أجل الاستقلال! ومذكرات السفير الزيّاني بمناسبة بعثته كذلك لإسطامبول ... والناصري في الشرق، وأهمّاش في فرنسا، وابن إدريس في باريز، والشامي والغسال في إسبانيا، واليزدي في دول أوروبا الأربع: فرنسا وإنجلترا وبلجيكا وإيطاليا، والكرودي في إسبانيا وابن سليمان في روسيا...

وقد تحدث المقدمة عن مساهمة القصائد العربية في تسجيل بعض المواقف السياسية والدبلوماسية، وهكذا وجدنا أنفسنا أمام ديوان من الشعر البطولي يعج بالمواقف المثيرة واللّقطات الجميلة ... عن معركة الزلاقة في الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين ومعركة أوقليش ثم عن غزوة الأرك في عهد الموحدين ... قرأنا عن شعر ابن الأبار حول تهديد بلنسية، ودعوة ابن المرحل لإنفاذ الأندلس وملحمة الملزوزي حول سفارة شانصو واستصراخ ابن يجبّش لتحرير السواحل المغربية، وقرأنا عدداً من المقطّعات حول مصرع ضون سباستيان ملك البرتغال في وقعة وادي المخازن ... وعن تحرير العرائش وعن الدّعوة لتحرير سبتة وعن مهاجمة الأسطول الأمريكي من لدن الأسطول المغربي ... ونداء الشّعراء المغاربة بعد احتلال الجزائر وعن استقبال ملك المغرب لسفير إنجلترا أو الدانمارك والنمسا...

وتتناول المقدمة في المجلد الثاني ما يتعلّق بالصادرات والواردات ودور الأولى في التعريف بالمغرب، وتكون فرصة للحديث عن السكر المغربي وسمعته العالمية، ومعامل السكر منذ عهد الموحدين ... وعن ملح البارود والعَلَق الطبي والمواد الصيدلانية والثروة المعدنية والحيوانية والسمكية ثم الحديث عن الواردات من أعتدة حربية وقطع غيار وشاي وقهوة وآلات للموسيقى...

ويتحدّث الفصل المعنون بإبرام الاتفاقيات عن اللّغة العربية كوسيلة وحيدة للتعامل في الداخل والخارج ... وأن المغرب كان يرفض تسلم الرسائل غير المحررة باللّغة العربية بالرّغم من وجود قلم للترجمة بالبلاط المغربي على مرّ العصور ... وأن المغرب ظلّ يعتمد في توثيق معاهداته مع الأجانب على التاريخ الهجري من غير أن يجافي أحياناً التقويم الشمسي كما يعتمد على استعمال الأرقام المعروفة في الموسوعات العالمية بالأرقام العربية...

ويكشف فصل المراسلات السرية عن الكتابة بالرّموز السريّة التي عرفت منذ العهد العبيدي الذي امتدّ في بعض الأحيان إلى مدينة فاس، ويستعرض هذا الفصل الحديث عن "الشفرة" في عهد الموحدين وعهد السعديين وعهد العلويين وعن اهتمام الدّولة بسرية المراسلات ثم يقدّم صورة لإحدى الوثائق المتعلقة بالموضوع مقدماً بعض النّماذج...

وفي الفصل الخاص بورود السفارات ومراسيم الاستقبال يتحدّث عن طريقة استقبال السّفراء في العهود السابقة ... وعن حديث السّفراء الأجانب عن حفلات تقديم أوراق الاعتماد للعاهل المغربي...

وتكون هذه مناسبة للحديث عن اللّوحات الرّائعة التي رسمها الفنّانون المرافقون للبعثات الأجنبية ... ويختم هذا الفصل بالإشارة إلى اللّاجئين السّياسيين إلى بلاد المغرب من العرب والعجم...

وفي الفصل الذي خصص للهدايا المتبادلة بين المغرب وغيره من الأمم نلاحظ أن تلك الهدايا المقدمة من المغرب تكون من المواد الاستراتيجية كملح البارود والغنائم الحربية ... ومن الهدايا الجياد والصقور وكلاب الصيد والسباع والنعام ... وقد سجل من الهدايا المقدمة إلى المغرب طائفة من الساعات المختلفة الأشكال والإسطرلابات ومن الحيوانات الزرافة والفيل ... واعتباراً لما ربط بين بعض المدن المغربية وغيرها من المدن الأخرى من صلات، انتقل الفصل إلى الحديث عن التوأمة بين المواقع هنا وهناك .. كما تحدث عن تعود الحكومة المغربية على اقتناء العقار خارج المغرب...

ويخصص فصلاً للبعثات القنصلية الأجنبية المقيمة في المغرب ويتحدث عن اهتمامها ورعاية مصالح رعاياها ومصالح "المغاربة" الذين يتوفرون على "حماية قنصلية أجنبية" وهنا يظهر تنافس القنصليات ... كما تظهر بعض التقاليد الدبلوماسية المعروفة مثل إخبار المبعوث بموعد تغيبه أو عودته بعد إجازته السنوية ... ولا يهمل الفصل تتبع المغرب للحملات العدائية ووسائل الرد عليها...

ويأتي بعد هذا فصل يكمل الفصل السابق، ويتعلق الأمر بوضعية الدبلوماسيين الأجانب بالمغرب ... وهنا يتحدث عن الحصانة، وعن حرية العقيدة والإعفاء من أداء الديونة ومبدأ المعاملة بالمثل منذ عهد الدولة الموحدية إلى العهد العلوي الحاضر ... ودور الملك سيدي محمد بن عبد الله (محمد الثالث) في توضيح وضعية السلك الدبلوماسي بالمغرب ... وهنا يتحدث عن الوظيفة التي ابتكرها هذا الملك العظيم: "وظيفة قنصل من لا قنصل له" وهي الوظيفة التي استوعب بها صلة المغرب بسائر ممالك المعمورة ولو أنها لم تبعث بمندوبٍ عنها للمغرب مثل روسيا وأمريكا...

ويأتي بعد هذا فصل "العواصم المغربية الدبلوماسية" الذي يبرز في الأول أن سروج الجياد كانت هي كراسي العرش المفضلة للملوك المغاربة ... ومن هنا ينتقل إلى ذكر فاس باعتبارها العاصمة الأولى للدولة المغربية، ويأتي بنبذة مختصرة عنها، لا سيما أن المغرب كله قد حمل في الفترة من الفترات اسم "فاس" ... ثم يتحدث عن مدينة مراكش أم القرى التي يستمد منها الغرييون تسميتهم للمملكة المغربية (Marruecos). وبعد أن يأتي ببعض ما دون عنها من قول ورسم ينتقل إلى مدينة مكناس التي عجز الفرس واليونان والرُّوم عن الإتيان بمثلاها - على حدّ تعبير المؤرخين - قبل أن يضربها زلزال ليشبونة ١٧٥٥-١١٦٩ .. ثم يتحدث الفصل عن (تازة) التي كانت - في بعض الأحيان - القاعدة التي تمتلك السيادة على سائر أطراف المغرب، ومن هنا ينتقل الفصل إلى مدينة سلا التي دوّخت دول أوروبا بالرغم من صغر رقعتها!.. وبعدها يذكر مدينة الرباط العاصمة الإدارية الحالية التي كانت نواة القصر الملكي بها هي "الدار الكبرى" التي بناها السلطان سيدي محمد بن عبدالرحمن .. ولا يهمل الفصل الحديث عن عواصم دبلوماسية أخرى قامت بدور بناء في صنع تاريخ المغرب الدولي ويذكر منها تطوان وبادس والعرائش وطنجة وسبتة...

وينتقل الكتاب بعد هذا إلى فصل يحمل "انطباعات الزوّار الأجانب عن مظاهر الحياة المغربية" وهنا يسوق بعض الشهادات والإفادات التي تقدم بلادنا للعالم الآخر ... كتبت بأقلام سفراء أو وزراء أو مؤلفين باحثين...

وهنا نجد حديثهم عن ألعاب الفروسية ومصارعة الأسود وهواية الصيد بالصقر الذي كان ملوك المغرب يتهادونه مع ملوك أوروبا وملوك المشرق على مرّ العصور ... ونجد حديثهم عن مواكب الشُّموع بمناسبة عيد المولد ... وعن

أنواع الرقص ... وعما نسميه اليوم بالأكْزَبَاط وعن رياضة المصارعة والمدارعة والمقارعة ولعب الكرة ... ومن الدبلوماسيين من صادف احتفال الطلبة في فصل الربيع بتنصيب سلطانٍ لهم فترة معينة تتميز بمشاركة عاهل البلاد الذي يزور دولة الطلبة على ضفاف وادي فاس ويجري "اجتماع قمة" مع سلطان الطلبة!!!

وكانت مما تحدثت عنه تقارير الزُّوار ما يتصل بالصناعة المغربية التقليدية التي كونت لديهم معرضاً جيّداً ... المنسوجات التي كانت، والحليّ كذلك تجد لها صدى طيباً في بلاطات أوروبا...

هذا بالإضافة إلى حديثهم عن آثار الهندسة الهيدرولية ... الدواليب المائية التي انتصبت هنا وهناك لرفع الماء إلى مستويات معيّنة والتي حركت قرائح السفّراء والشّعراء .. والساعات المائية التي ما تزال تحتفظ ببعض بقاياها إلى اليوم دون بقية أطراف العالم الإسلامي، والعبارات التي كانت منصوبة بين ضفتي بعض الأودية الكبرى لربط الصلة بين الشاطئين عبر الفضاء..

وفي هؤلاء من حضر عيد المهرجان وعيد المولد وتحدث عن موكب العاهل المغربي أثناء تنقلاته العادية ... صلاة العيد ... وصلاة الجمعة ... وفيهم من أشاد بأصالة المغرب في باب التعامل الدولي والمجاملات والمكايسات ... واحترام الالتزامات ... وبنّبه هذا الفصل في الأخير إلى بعض المؤلفات التي تناولت الحديث عن المغرب بما فيها التي احتوت على بعض التّرهات والأباطيل مما كان وراءه نازع شخصي أو وازع مغرض...

وقد تناول هذا المجلد كذلك الحديث عن المحاولات المغربية المتمثلة في حرصه على "المواكبات والمبادرات...".

وهنا يتحدث الفصل عن تتبع المغرب لما يقال عنه وما يجري من حوله على الضفة الأخرى لحوض البحر المتوسط كما يتحدث عن استقدام البعثات

العلمية وتشجيع الدّراسات الرّياضية وإنشاء المطابع وتنظيم تعريب العلوم وتعميم الدراسات الحربية، وتشبيد الرّباطات وإنشاء البروج على السواحل المغربية ... ولا يهمل الفصل شعور المسؤولين المغاربة بسوء الظن من مضاعفات النهضة الأوروبية التي كانوا يخشون أن تغزو تقاليدهم وقيمهم وتقضي على هويتهم ... وفي إطار تأثر المغرب بما يجري على مقربة منه يتحدث التّأليف عن بدء احتفال المغاربة بعيد المولد تقليداً لاحتفال الإسبان بعيد الميلاد!

ويخصص هذا المجلد فصلاً للحديث عن الجيش المغربي الذي كان وراء الصيت الدبلوماسي للملكة المغربية. وهنا نرى اهتمام المغرب بجهاز الدفاع ... ولا يغفل هذا الفصل الإشارة إلى المليشيات المسيحية التي سمعنا بأصدائها في المغرب منذ العهد المرابطي على مل يؤكد ابن الأثير ... كما يتحدث عن المناورات والاستعراضات واختراع الأسلحة النارية والمؤلفات الحربية والمعارك الكبرى وأصداء الجندي المغربي، وينتقل الفصل إلى الحديث عن الأسطول المغربي ودار الصناعة وعدد قطع الأسطول وأنواع تلك القطع ... والموقف من القرصنة الأوروبية والحديث عن الملك محمد الثالث وفكرة إعادة دار الصناعة بالاستعانة بالخبرة العثمانية ... والتخطيط لوصول الأسطول إلى الهند وأمريكا، ثم تواطؤ الدّول الأوروبية على الأسطول المغربي مع معاهدة إيكس لاشابيل...

وفي سبيل الجيل الذي يضطلع بمسؤولية مغرب الغد وجدنا ملوك المغرب يقررون إرسال البعثات الطلّابية ويعملون على الاستفادة من الخبرة الأجنبية ولكن دون أن يغفلوا عن المضاعفات التي قد تصحب تلك الاستفادة، وهكذا وجدنا الوفود الطلّابية في مصر وفي دول أوروبا، إنجلترا وإيطاليا، وإسبانيا وفرنسا وبلجيكا، وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية وجبل طارق كذلك ... وقرأنا عن تفقد سفرائنا للطلّابة المغاربة في الخارج وقرأنا عن نماذج من إجازة طلابنا في أوروبا ... ومذكرات بعض الطلبة...

ويتحدث الفصل بعد هذا عن وسائل المواصلات في اهتمامات الأجانب، وتكون مناسبة للحديث عن تاريخ البريد في المغرب والظهير الأول الذي صدر لتقنين توزيع البريد منذ عام ١١٤٨ = ٥٤٣ والوسائل التي يستعين بها "الرقاص" أي موزع البريد وحرص الحكومة على سرية المواصلات... ثم المبادرة الحاسمة لإنشاء أول إدارة عصرية للبريد عام ١٣٠٨ = ١٨٩١ وظاهرة إنشاء مراكز بريدية أجنبية في بعض الجهات المغربية واستيلاء الحكومة المغربية على هذه المراكز... ثم ظهور مجموعة لطوابع البريد...

وبعد هذا يتناول الكتاب الحديث عن "موضوع الصحافة في المغرب والنشاط الدبلوماسي" وهنا نقف على دور "البَرَّاح" في الحياة الاجتماعية المغربية وعن أول محاولة لإصدار نشرة إخبارية، والمراسلين الأجانب ثم عرض لأسماء عدد من الجرائد التي كانت تظهر بالمغرب، ثم إنشاء مطبعة طنجة، وتتبع أقوال الصحف الأجنبية - على ما أشرنا - ومقاومة الاختلاق والزيف... تغطية الصحافة لأعمال مؤتمر مدريد ١٢٩٧ = ١٨٨٠ ومؤتمر الجزيرة الخضراء... عزم الحكومة المغربية على إنشاء صحيفة وطنية...

ويتحدث فصل آخر عن "صدى اليهود المغاربة في الحقل الدبلوماسي والسياسي"، وهنا نعرف عن المناصب المهمة التي كان يشغلها اليهود... وبعد أن يتحدث الفصل عن اليهود في عهد الأدارسة والمرابطين الموحدين الذين تدخلوا لدى جمهوريات المتوسط لصالح بعض اليهود، يتحدث الكتاب عن "الملاح" أي الحارة التي يسكنها اليهود... ولا يهمل الفصل رأي ابن عبدالكريم المغيلي في اليهود أيام بني وطاس... ثم الحديث عنهم أيام السعديين و العلويين ويأتي الكتاب بالبيان التاريخي للسلطان مولاي عبدالرحمن ١٢٥٧ = ١٨٤٢ وبالمرسوم الملكي عام

١٢٨٠=١٨٦٤، والفتوى بإنشاء محاكم خاصة باليهود، ويختم الفصل بالحديث عن  
تعلق اليهود بهُويتهم المغربية وإسهامهم في الحركة الوطنية...

ثم يأتي فصل "الجالية المسيحية في خدمة الدولة المغربية على الصعيدين  
الداخلي والخارجي" ... وهنا نقرأ عن استعانة المرابطين بالموظفين الأجانب، واعتناق  
الإسلام من طرف عدد من القواد المسيحيين ثم حديث عن الأجانب الذين قاموا بدور  
سفراء عن المغرب ... والتجار المسيحيين بالمغرب، متابعة الحكومة للذين يقومون  
بحركة التصدير ... بعثات المجاملة إلى البابا اقتداءً بالأسلاف المتقدمين. ويأتي بعد  
هذا فصل "الأمثال والتعابير" في الاستعمال السياسي ... وردت بعض هذه الأمثال  
في رسائل سياسية أو حوار ديبلوماسي أو نطق شعبي ... أكثر من مائة مثل فيها  
المثل الدارج وفيها المقتبس من اللسان العربي...

ويختتم هذا المجلد بالحديث عن "المائدة المغربية في حديث الواردين"، وهنا  
نعرف عن المطبخ المغربي كمظهر من المظاهر الحضارية ... والمؤلفات المغربية  
القديمة عن المطبخ المغربي ... ويستعرض الكتاب عدداً من الصّحون المغربية  
الأصيلة: الحريرة، الكسكس، البسطيلة، المروزية الصنهاجي ... ثم يتحدث عن  
المجنّبات والحلويات والمشروبات ... والأتاي ومبدأ ظهوره، وتقاليده شربه، وأخيراً  
العطور في الحياة المغربية واستهلاك المغاربة للعود القماري...

ولقد تناول المجلد الثالث من الكتاب (المغرب في حديث الأقدمين) ...  
هيرودوت - بلين الأكبر - بطليموس ... المغرب ملتقى الحضارات، العلاقات بين  
الممالك المحلية والأمم المجاورة على الضفة الأخرى من الحوض المتوسط، علاقات  
المغرب بالفينيقيين والقرطاجيين، علاقات المغرب بالرومان وبداية الحديث عن  
المملكة المغربية، والسفارة الرومانية إلى بوكوس - قيصر وبوكوس الثاني، التبادل  
التجاري مع الخارج ... والمغرب تحت حكم يوبا الثاني، وعلاقات بطوليمي مع  
الرومان، وتأثير الرومان في المغرب، بين المغرب والوندال، الحديث عن اكتشاف

المغاربة لأمريكا في ذلك التاريخ، المغرب والروم والبيزنطيون، المغرب القديم من خلال النصوص العربية، المغرب وظهر الإسلام، سفارة النبي إلى قيصر الروم وعلاقة القيصر آنذاك بالمغرب- المغرب في عهد الخلفاء والولاة، فتح بلاد المغرب- عقبة بن نافع في السودان والسوس- معاهدة بين عرب قيس وبربر زناتة- العرب في اتجاه القارة الأوروبية- اتفاقية ابن نُصَيْر- الإمارات المغربية الأولى: إمارة بني صالح في نكور، إمارة بني عاصم في سبتة وبني مدرار في سجلماسة وبني رستم في تاهرت وبرغواطة على ساحل المحيط الأطلسي.

وقد تناول المجلد الرابع مقدم الإمام إدريس وظهر أول دولة مغربية، فتوحات إدريس، بيعة إدريس الثاني والعلاقات الخارجية للدولة الإدريسية، بالإمارات المجاورة، وبالخلافة العباسية، وبأهل مصر وبعثة من هارون الرشيد لتصفية إدريس الأول! صلة بيزنطة بالغرب الإسلامي، سفارة إدريسية لدى شارلمان؟ علاقات المغرب بالعبيديين ... الإمارات المغربية والخلافة الأموية بالأندلس- صلات بلاط الأندلس بإمارة برغواطة - موقف الأدارسة من الأمويين بعد نزول هؤلاء في سبتة عام ٣١٩=٩٣١- النجدة المغربية لصّد غارات القرامطة على الكعبة ... الأدارسة بين الصراع العبيدي والأموي على المغرب - العلاقات المغربية الأندلسية بعد ابن أبي العافية، محاولة الناصر ربط علاقات بينه وبين العبيديين ... سقوط البصرة المغربية في يد الأمويين والظفر بالحسن ابن كَنون - في قرطبة بين زيري بن عطية والمنصور بن أبي عامر .. تنافس بين بني مغراوة وبين بني يفرن، العلاقات المغربية بالأمم الأخرى، عبر "المعسكرين" الأموي والعبيدي ... - علاقات المغرب بليون ونافار وقشتالة وبرشلونة - علاقات المغرب بقيصر وملك الفرنج وإمبراطور ألمانيا - علاقات المغرب بجنوة وسائر الجزر المتوسطية.

وتناول المجلد الخامس الحديث عن المرابطين وإمبراطورية غانة وصلة إفريقيا بالإسلام عبر المغرب، دور عبدالله بن ياسين، علاقات المرابطين بالأندلس، نماذج

من الخطابات المتبادلة بين ألفونسو والمعتمد سفارة ملوك الطوائف لدى يوسف بن تاشفين، معركة الزلاقة وظروفها، دور المرابطين في تطويق الحروب الصليبية بالشرق، المرابطون ومملكة بني هود، معركة أوقليش أو الكونتات السبعة، اجتياز الأمير علي بن يوسف إلى الأندلس افتتاح قلعة شنترين والجزر الشرقية، تدهور العلاقات بين المرابطين وبني هود، العلاقات بين المرابطين وبين الصنهاجيين بتونس، المرابطون في نجدة الزيريين ضد روجي صاحب صقلية، علاقات المرابطين مع بني حماد وتهنة يوسف بن تاشفين للمنصور بن الناصر بن علّاس، العلاقات بين المرابطين وصقلية، علاقات المرابطين بالجمهوريات الساحلية: بيزة، جنوة، مرسيليا، والمرابطون والبابا، المبادئ العامة للاتفاقيات المبرمة مع الأمم النصرانية، الاتفاقيات الشفوية بين المغرب والأُمم المجاورة، العلاقات بين المرابطين والعباسيين، العلاقات مع أمراء القاهرة، العلاقات بين المرابطين والفاطميين، استمرار العلاقات المرابطية العباسية، محاولة توحيد مداخل الشُّهور بين المشرق والمغرب.

ويتناول المجلد السادس الذي يبتدئ بعلاقات الموحدين مع الأندلس واستفادة الموحدين من خلافت المناوئين لهم، معركة الأرك ... الخليفة الناصر ووقعة العِقَاب، العلاقات المغربية الأندلسية أيام المستنصر والعاقل والمأمون والسعيد والرشد والمرتضى .. الخلافة الموحدية وباقي ممالك إفريقيا، والعلاقات بين الموحدين والكرسي الرسولي، علاقات دولة الموحدين وجمهورية بيزة بما صاحبها من معاشات ومواريات وانفراجات، العلاقات بين المملكة المغربية وبين جنوة وفرنسا، صقلية، البندقية، أرغون، الممارسة العامة للتجارة الأجنبية بأقطار المغرب، العلاقات بين المملكة المغربية وبين إنجلترا، النمسا، اليونان في عهد الموحدين، بين الخلافة الموحدية والخلافة العباسية في المشرق، مقام سفارة صلاح الدين بالمغرب في عهد المنصور الموحدي وظاهرة الاتصال المستمر بين الجهتين...

ويتناول المجلد السابع علاقات بني مرين مع أقطار المغرب الكبير، وعلاقاتهم بالمغرب الكبير، وعلاقاتهم بالممالك الإفريقية – علاقات المملكة المغربية بالأندلس: قشتالة وغرناطة، الاتصالات بين غرناطة وفاس، العلاقات بين المملكة المغربية ومملكة أرغون، العلاقات المغربية البرتغالية – الغارة على لاقش واحتلال سبتة – المغرب ودول الحوض المتوسط: جنوة، البندقية، فلورنسا، بيزة، العلاقات المغربية مع البابا – صقلية، إنجلترا، فرنسا، ميورقة، العلاقات بين المغرب والمشرق – التواطؤ على المغرب في عهد بني وطاس، العلاقات المغربية البرتغالية في عهد بني وطاس، علاقات البرتغال بالمدن المغربية، العلاقات بين المغرب والدول الأوروبية في عهد الوطاسيين، علاقات بني وطاس بالمغرب الأوسط والأدنى وباقي ممالك إفريقيا، العلاقات مع العثمانيين في بداية ظهورهم، المحاولات الأخيرة لإنقاذ الموقف بالأندلس ولجوء أمير غرناطة إلى مملكة فاس.

وتتناول المجلد الثامن علاقات المغرب بالعثمانيين وبلاد المشرق في عهد السعديين، وعلاقات السعديين بالبرتغال، والعلاقات المغربية الإسبانية في عهد السعديين، والعلاقات المغربية الفرنسية، والعلاقات المغربية الإنجليزية، وعلاقات المغرب مع الطوسكان، وبين فاس وفلورانس في عهد الدولة السعدية، علاقات المملكة المغربية مع باقي ممالك إفريقيا، العلاقات المغربية مع البلاد المنخفضة في عهد السعديين.

وتتناول المجلد التاسع والعاشر الفترة الأولى للدولة العلوية:

وهكذا يتناول المجلد صلات المملكة المغربية بالإمبراطورية العثمانية حيث نقرأ عن التوتر بين المغرب وفرنسا وأثره على الصلات بين الجيران! واستتجداد تركيا بالمغرب ضد احتلال نابليون لمصر وينتقل هذا الفصل إلى علاقات المغرب ببلاد السودان من خلال الرسائل والتقارير...

ثم يتناول هذا المجلد العلاقات المغربية الفرنسية في بداية الدولة العلوية ويتحدث عن (اتفاقية ابن حدو - لوفيفر) في عهد السلطان مولاي إسماعيل وخطاب الملك لويز الخامس عشر للسلطانة خناثة كما يتحدث عن "الأميرة الضاوية" ... وموقف مولاي سليمان من احتلال نابليون لمصر...

وينتقل المجلد إلى العلاقات المغربية الإسبانية مبرزاً مشكلة الثغور المغربية المحتلة والسفارات المتبادلة بين البلدين ... والاتفاقيات المغربية الإسبانية وحضور السفير ابن عثمان في الملف المغربي الإسباني ومحاولات السلطان مولاي سليمان لاسترجاع سبتة...

ثم يتناول الكتاب العلاقات المغربية البرتغالية ابتداءً من العهد الإسماعيلي إلى تحرير الملك محمد الثالث مدينة الجديدة وتدشين عهد جديد مع مملكة البرتغال، والمساعي الحميدة المغربية بين الجزائر البرتغال والموقف في عهد السلطان مولاي عبدالرحمن...

ثم العلاقات المغربية الإنجليزية وسفارة ابن حدو لدى الملك شارل الثاني ومشاركة المغرب في المؤتمر الطبي الدولي بطنجة! وسفارة ستوارت للمملكة المغربية ثم علاقات الملك محمد الثالث بالملك جورج الثالث والمعاهدة المغربية الإنجليزية في عهد السلطان مولاي سليمان، وتأتي بعد هذا علاقات المملكة المغربية مع البلاد المنخفضة، وحضور السفارة المغربية أمسية ساهرة في بلاط (لاهاي) في عهد السلطان مولاي إسماعيل ورسالة السلطانة خناثة إلى الولايات العامة وتجديد الاتفاقيات المغربية الهولندية ثم سفير السلطان مولاي سليمان إلى (لاهاي).

ويأتي بعد هذا ملف العلاقات بين المغرب من جهة وبين بروسيا والنمسا وروسيا، حيث نقرأ عن صدى الاصطدام النمساوي العثماني في المملكة المغربية وسفارة الملك محمد الثالث إلى جوزيف الثاني ببينا، والمساعي المغربية الحميدة بين تركيا وخصومها.

ثم الحديث عن العلاقات بين الإمبراطورة كاثرين الثانية والملك محمد الثالث والمراسلات بين العاهل والإمبراطورة .. ثم يأتي فصل العلاقات المغربية مع الدانمارك والسويد والنرويج فنعرف عن بعثة الملك فريدريك الخامس إلى المغرب وتهادي الصقور بين ملوك المغرب وملوك الدانمارك، ثم عن المفاوضات المغربية السويدية وتجديد الاتفاقية في عهد السلطان مولاي سليمان وانضمام النرويج إلى السويد.

ويعالج هذا المجلد علاقات المغرب مع جنوة وطوسكان والبندقية وسردينية وموناكو وصقلية ونابولي ... فنقرأ عن خطابات السلطان مولاي إسماعيل لحاكم جنوة وعن الاتفاقية الجنوبية في عهد الملك محمد الثالث ... ومن هنا ينتقل الحديث عن سفارة ابن عبدالمك في طوسكانا، واتفاقية المغرب مع البندقية، ومع صقلية ونابولي ... وينتهي هذا الملف بالحديث عن حاضرة الفاتيكان واستمرار الملوك العلويين في مساعدة مبعوثي الكرسي الرسولي.

ويتحدث هذا الفصل أيضاً عن علاقات المغرب بالولايات المتحدة الأمريكية فيهتم بالمراسلات بين الكونكريس والبلاط المغربي كما يستعرض الاتفاقية المغربية الأمريكية وإهداء الرئيس الأمريكي نسخة من الدستور الأمريكي للعاهل المغربي، ثم العلاقات المغربية الأمريكية في عهد السلطان مولاي سليمان ... ورسالة السلطان مولاي عبدالرحمن إلى السلك القنصلي.

ويختتم المجلد بالحديث عن صلة المغرب بدبروفنيك ومالطة واليونان، وهنا نقرأ عن وفرة المراسلات حول هذه المواضيع وعن مذكرات السفير ابن عثمان في مالطة، وخطاب الباب العالي للسلطان مولاي سليمان بشأن التوصية خيراً بالجزر اليونانية التي انفصلت عن البندقية..

أما المجلد العاشر ... فيبتدئ بالحديث عن علاقات المغرب مع غيره من الدول في أعقاب انتزاع فرنسا للجزائر من يد الأتراك ... وهنا يستعرض

أولاً موقف فرنسا من عون المغرب للجزائر وتدهور العلاقات بينهما مما أدى إلى موقعة إيسلي، ثم أثر هذه الأحداث على تطاول الإسبان على تطوان والتجاوزات الفرنسية للحدود المغربية ... والمؤامرات ضدّ المغرب ... وبسط الحماية الفرنسية على المغرب!

ثم يتناول الملف الثاني العلاقات مع إسبانيا والبرتغال بعد احتلال فرنسا للجزائر وأثر هذا على احتلال إسبانيا للجزر الجعفرية.

والمساعي الدبلوماسية لتجنب الحروب ... ثم التنسيق بين فرنسا وإسبانيا، واحتلال هذه الأخيرة لشمال المغرب! وبعد العلاقات الودية بين المغرب والبرتغال ... وينتقل المجلد إلى الحديث عن علاقات المغرب بإنجلترا فنقف على الاتفاقية المغربية الإنجليزية عام ١٢٧٣ = ١٨٥٦ وتصفية شركة ماكينزي في جنوب المغرب، إلى الاتفاق البريطاني الفرنسي حول بسط الحماية! ثم ينتقل الملف إلى العلاقات مع ألمانيا فنقرأ عن الاتفاقية التجارية بين البلدين لعام ١٣٠٧ = ١٨٩٠ وزيارة الإمبراطور كيوم الثاني للمغرب والاتفاق الألماني الفرنسي حول بسط الحماية..!

ويأتي بعد هذا الفصل العلاقات بين المغرب وإيطاليا فنقف على مراسلات العاهل الإيطالي مع العاهل المغربي والسفارة المغربية لإيطاليا، وقنصلية الصّارود بطنجة، والاتفاقية المغربية الصقلية ... وينتقل الفصل إلى علاقات المغرب بحاضرة الفاتيكان ... والسفارة المغربية لدى البابا ليون الثالث عشر ١٣٠٤ = ١٨٨٧، ثم يختم بعلاقات المغرب باليونان...

ويأتي فصل العلاقات بين المغرب وبلجيكا وهولندا والنمسا والدانمارك والسويد والنرويج، ونقف على نصوص الاتفاقية المغربية البلجيكية عام ١٢٧٨ = ١٨٦٢ وتبادل السفارات بين الدولتين ... ثم الاتفاقية المغربية الهولندية ... وتصلّب الموقف النمساوي بعد انتزاع فرنسا للجزائر من يد الأتراك ثم الاتفاقية المغربية الدانماركية والسويدية...

ثم يأتي فصل الحديث عن علاقات المغرب بروسيا القيصرية فيثير محاولة إقحام المغرب في الحلف الروسي الأمريكي ويتحدث عن زيارة الأمير فيازيمسكي للمغرب وتبادل السفارات بين الروس والمغرب قبيل بسط الحماية الفرنسية على المغرب...

وينتقل هذا الفصل إلى الحديث عن العلاقات المغربية الأمريكية فيتعرض للاتفاقية الأمريكية المغربية عام ١٢٥٢ = ١٨٣٦ وموقف المغرب من الحركة الانفصالية في أمريكا، ثم محاولة حلف مغربي أمريكي لحماية استقلال المغرب ويختتم الفصل بعلاقات المغرب مع دول أمريكا الوسطى والجنوبية.

وهنا يأتي الفصل الذي يخصص للحديث عن الاتفاقيات المغربية المتعددة الأطراف من التي أشير لها في الفصول السابقة: اتفاقية المجلس الصحي ١٢٥٦ = ١٨٤٠ واتفاقية منار أشقار ١٢٨٢ = ١٨٦٥، واتفاقية مدريد ١٢٩٧ = ١٨٨٨، واتفاقية الجزيرة الخضراء ١٣٢٣ = ١٩٠٦.

ويختتم هذا القسم من المجلد العاشر بعلاقات المغرب بالعثمانيين والإيالات التابعة لهم ... وبإمارة حيدر أباد، والسودان وبقية البلاد الإفريقية...

وفي القسم الثاني من هذا المجلد يتحدث الفصل الأول عن الظروف الاستثنائية التي عاشها المغرب بين فرض الحماية واسترجاع الاستقلال، وهنا يستعرض ملحمة الأربع والأربعين سنة التي انتهت بنفي الملك محمد الخامس، ثم عودته إلى عرشه حاملاً معه بشرى انتهاء عهد الحماية واستعادة الاستقلال...

وهنا يتناول الفصل الحديث عن "المغرب المستقل في الأسرة الدولية" وهو يبتدئ باستئناف العلاقات على أساس جديد بين المغرب ودول أوروبا الغربية بما فيها إسبانيا وفرنسا وإنجلترا وبلجيكا إلى آخر اللائحة الطويلة التي رتبت حسب تاريخ تقديم أوراق الاعتماد للعاهل المغربي ... ثم يأتي الحديث عن الصلات مع الدول الشرقية: يوغسلافيا والاتحاد السوفييتي إلخ...

وبعد أن يأتي الحديث عن علاقتنا مع الفاتيكان نجد الحديث عن علاقة المغرب المستقل بالجامعة العربية ومع الدول العربية، وهنا نجد الملك محمداً الخامس يتحدث عن الهوية العربية للمغرب، كما نجد الملك الحسن الثاني في القمة العربية الأولى بالقاهرة واحتضان المغرب لمؤتمرات القمة العربية...

وينتقل الفصل إلى الحديث عن علاقات المغرب الإفريقي بباقي الدول الإفريقية انطلاقاً من ميثاق الدار البيضاء وانتهاء بمنظمة الوحدة الإفريقية، علاوة على العلاقات الثنائية مع الدول الإفريقية...

ثم ينتقل إلى الحديث عن علاقات المغرب بالولايات المتحدة الأمريكية وبدول أمريكا الوسطى والجنوبية والشمالية، وعلاقات المغرب بدول آسيا: تركيا - إيران - باكستان - بانغلاديش - الهند - الصين - كورسيا - أندونيسيا - ماليزيا - الفلبين ... ويختم هذا الملف بعلاقات المغرب مع أستراليا. ويأتي بعد هذا الفصل الأخير الذي يتناول علاقات المغرب بالمنظمات الدولية وهنا نقرأ عن خطاب الملك محمد الخامس في الأمم المتحدة وعن تحمل الملك الحسن الثاني لأداء رسالة والده في المنتظم الدولي.

ويتحدث هذا الفصل عن المغرب ودول الانحياز وتلبية الدول الإسلامية جميعها لأول مؤتمر إسلامي ينعقد بالرباط بدعوة من الملك الحسن الثاني ثم يتحدث عن علاقة المغرب بالسوق الأوروبية المشتركة، والاتفاقيات الدولية بين الأمس واليوم...

\* \* \*

هذا وإيماناً بجدوى الصورة والرسم على موضوع كهذا - فقد اهتم الكتاب باختيار ما يناهز الألف رسم من بين مئات الرسوم التي وقفت عليها، وذلك من أجل جعل القارئ في الجو الذي رجوته له...

وهكذا فقد زودت الكتاب بثروة هائلة من اللوحات والرسوم التي تتصل بمختلف الدول المتعاقبة..

فهناك وثائق ومستندات تمس علاقات المغرب بالعالم العربي والإسلامي، وروسيا وبلجيكا، ودوبروفنيك والولايات العثمانية وإنجلترا وألمانيا واليونان والهند والولايات المتحدة الأمريكية والنمسا وآسيا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا والفاتيكان ... هذا بالإضافة إلى الوثائق الخاصة بالحدود المغربية..

وقد زودت الكتاب بخرائط أصيلة لم يسبق نشرها واعتمدت في تدقيقها على (مصلحة الخريطة) حيث جعلت لكل فترة من فترات التاريخ خريطة تمثل المساحة والمواقع التي كانت تعرفها الفترة، ابتداءً مما قبل الفتح الإسلامي إلى العهد الإدريسي وأيام المرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين، وذلك لأضع القارئ في الصورة الحقيقية للعهد الذي أتناول الحديث حوله...

ولقد جعلت لكل مجلد شارة على الغلاف يميّز بها ... كانت هذه الشارات تلخص حدثاً من الأحداث الهامة التي مر بها القارئ أثناء قراءته لذلك المجلد، كما اخترت لكل مجلد وثيقة مطوية هامة مما اعتبر عندي محطة تستحق الوقوف والاستيقاف!!

\* \* \*

ومع هذا كله فقد شعرت بضرورة الحاجة إلى إعداد أجزاء إضافية أخرى أضمنتها (ملاحق) تستوعب نصوص بعض الاتفاقيات والخطابات ... وأذكر فيها بعض الموضوعات التي أشرت إليها في غضون الكتاب كمعجم السفراء وسجل الأمثال...

يضاف إلى هذا أنني أشفع كل هذه المجلدات بأجزاء تحتوي على (فهارس) للمجلدات العشر تكون تلك الفهارس بمثابة المفتاح لكل ما يوجد بين دفتي الكتاب ...

فهناك فهرس الأعلام البشرية (بمن فيهم الدبلوماسيون المغاربة وغيرهم) ... والأعلام الجغرافية والأمم والشعوب والقبائل والجماعات، وهناك فهرس للمصطلحات، وفهرس للتوقيعات والأختام، والأيام والمواقع والأحداث وفهرس الظهائر والوثائق والاتفاقيات مرتبةً حسب الزمن الذي تمت فيه، وفهرس الخطب والرسائل والفتاوى مرتبة كذلك حسب زمنها، وفهرس الكتب والمخطوطات والرحلات، والمصادر الأجنبية، والمحاضرات والمقالات والبحوث والندوات، والمجلات والجرائد، والأمثال والحكم والأقوال السائرة، وفهرس القوافي، وفهرس الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وفهارس الصور والرسوم والرسائل ... ثم التصويبات...

لقد كان قصدي من كتابة هذا التاريخ أن أسهم في التعريف ببلادي التي قدمت للمجموعة الدولية عبر التاريخ عطاءً أسهم في ازدهار الإنسانية ورخائها ورفاهها...